



العظام الخمسة ...

تعطلت مساعي فتیان الدءوبة للقبض على غريمه السيد النحال.. فهو لا يمرق من طالبيه بقصد مرسوم إنما هو دائم المروق كطائر بلا عنوان.. سئم فتیان من طول الوقت وفشل مسعاه.. نصحه المحامى أن يعثر على مكانه الذى ينام فيه.. كلفه ذلك مراقبة جديدة وصبرًا طويلًا فى الانتظار أمام المطابع، طارده حتى فيلا الزيتون، أذهله أن ابن النحال يعيش ويدير عملاً من هذه الفيلا.. فكر للحظات أن يؤجل دعواه، ويقتحمه بنفسه ثم يساومه ثم يلتصق به ليعرف منه كيف صار يهيم على هذه الساحة من السيارات والسائقين، ثم يدخل فى حنايا مخه الرهيب عسى أن ينال من حظه جانبًا.. ولكنه سرعان ما طرد كل ذلك من فكره وعاد إلى نصيحة فريد هيندى «لا تفاوضه إلا والقيود الحديدية تمسك بيديه.. سينال منك إذا فاوضته وهو بأيد طليقه..» ثم عاد إلى محاميه بالعنوان الجديد..

وفى قسم شرطة الزيتون أيقن السيد النحال أن فتیان فتیان تمكن من تحقيق وثبة يهودية الأداء فأتى به من عنقه مرغمًا.. فكيف لفتیان ذلك الأرنب سريع الركض والأدمى بطيء الفهم أن يحقق ذلك بين يوم وليلة..؟ حكم غيايى جاهز بالسجن مدته عامان، وهو هنا ممسوك بأيدى رجال وحدة تنفيذ الأحكام.. اقتلعوه من الفيلا فى وضح النهار.. ارتبك وتلجلج وفقد حنكة التصرف.. خاف أن يكونوا قد أمسكوا بعنتر فى مكان ما.. أو بيدير فى مكان آخر.. وكشفوا رأس الأفعى المحرك للذيلين فى وقت واحد.. وفى القسم حمد الله أنها وثبة فتیان.. وما هو الصول الأشيب الحويط الممتلىع يبتسم فى وجهه بخبث وهو يرد على سؤاله:

- «ومتى سيكون العرض على النيابة؟»

- «مساء السبت، أو مساء الأحد، وقد تأخذ استمرارًا إن لم تقدم مصالحة مع فتیان..

أقصد مع المدعى»

- «لكن اليوم الخميس»

- «أعرف، وغدا الجمعة.. لا نيابة.. ستشرف عندنا في التخشبية.. انفضل.. ضع كل

متعلقاتك في الأمانات..»

* * *

فتحوا أمامه المزلاج الطويل لباب التخشبية الحديدى، ودفعوه إلى الداخل فذاهمه ظلام شفيف لم يسعفه بالتعرف على المكان. وقف تائها للحظات، دون أن يرى شيئًا أو يسمع سوى همهمة أحاديث يتبادلها المساجين.. ولما طال وقوفه شخط فيه أحدهم:

- «عارفين إنك طويل وحليوة ولا بس شياكة.. بس أنت حاتفصل واقف كدة بديك

أهلك.. أترزع أقعد»

جلس في بقعة لا يدرى كيف وجدها خالية.. وكان أول ما فعله أن اتجه إلى مصدر

الصوت وعرف صاحبه فأرسل إليه إبتسامة ناعمة:

- «على مهلك علينا يا بلدينا.. هى دى برضة مقابلة؟»

ومال على الجالس بجواره مداعبًا «ولا إيه يا حلاوة؟»

فرد جاره مسرعًا:

- «محسوبك السنّى، أبو دقن بنى»

ضجت الزنزانة بالضحك، وقبل أن تهدأ سأله السنّى:

- «والعسل؟ يبقى مين؟»

فعاجله السيد ضاحكًا:

- «أنا بقى الأصيل، أبو دم ثقيل؟»

وهنا لم يجذب ضحكاتهم بقدر ما جذب عيونهم نحوه..

ناداه الشاب الرزين المستأثر بركن مميز في الغرفة أعده لنفسه مقرًا ونومة هنيئة:

- «وتهمتك إية يا أصيل يا أبو دم ثقيل»

انبعثت موجة ضحك جديدة لشكل السؤال، لكنها المجاملة المدسوسة لشاب يبدو أنه زعيم المكان.

ضحك معهم السيد مجاملًا هو الآخر وهو يتأمل هذا الشاب الرزين بوجهه الطويل، وشاربه الرفيع، وشعره الناعم، الأهوج، وصوته الأَجَش، ثم ذلك البريق الجسور الذى يطل من عينيه.. وفهم للتو أن محدثه هو زعيم هذا المكان.. فقال له: «خيانة»

- «خيانة زوجيه؟» هكذا سأله الزعيم

- «لا.. شريكى خان الأمانة»

- «لا.. كده مش حافهمك.. أنا حمار.. واحدة واحدة على، ولا إيه يا بقر؟..»

وتناثرت الإجابات بين: «طبعًا يا كيمو.. لك حق يا زعيم.. يا عم فهمننا.. إحنا كلنا حمير»

لقد هيا له كيمو الزعيم مجالًا فسيحًا لاحتواء المساجين وجمعهم في إنصات مبجل لقصته التى راح يرويها حول شريكه الذى كان يتاجر معه فى الموبيليا من دمياط إلى القاهرة والإسكندرية ولما دفعه طموحه إلى الاستقلال عنه حتى يتفرغ لتجارة الأراضى وإقامة العمارات فى حى عين شمس، وعند التصفية تبقى لهذا الشريك الخائن مبلغ بسيط قيمته ألف جنيه حرر له به إيصال أمانة، فرقع هذا الشريك قضية بالإيصال نكاية فيه وانتقامًا لما قام به من فض الشراكة بينهما.

وسرعان ما أحسوا جميعًا بما فيهم كيمو بالضآلة أمام هذا الشاب الصغير الأنيق الذى وصل إلى هذا الثراء فى هذه السن المبكرة.. فها هو يقول إن الألف جنيه مبلغ بسيط.. وهذا ما سوف يجذونه قولًا صادقًا عندما يتحدثون مع العسكر حول قضية زميلهم الجديد.. ثم كان إحساسهم الآخر نحوه أهم من الثراء، فهو ابن بلد ويفهم فى الصياغة كما بدا لهم من حديثه فعندما واجهه مسجون حسن الهيئة مقدمًا نفسه: «أنا كُله اللي زى الفلة، الجميل اسمه إيه وساكن فين؟» عرف النحال أن محدثه شاب مخنث، فأجابه مسرعًا: «وأنا محسوبك النحال اللي مالوش فى البطال.. وعندى فيلا فى حلمية الزيتون»

لحظتها تأكد المساجين الذين استقبلوا إجابة النحال بالضحك أن ضيفهم الجديد موغل في الصياغة، فانتبهوا وهم يعيدون تقيمه.. ولما دفع إليه «كله» بعلبة سجائر كاملة تحية له هتف الزعيم كيمو من فوق عرشه القريب:

- «هل هذه تحية يا كُله.. أم جر رجل.. أنت حاتم عمل شغل من دلوقت.. ثم أكمل»:
اللون ده مش لونك.. دا حاجة محترمة..»

وارتاح السيد لهذا التقييم الذى تتمتع به من الزعيم كيمو فراق له أن يضعه فى جيبه:
- «خير يا كيمو؟ الرقدة دى مش للناس المجدع.. لو عندك مشكلة المحامى عندى تحت أمرك.. تقدر نعمل الواجب.. لو فيه كفاله.. أتعاب.. أى شىء»
فرد كيمو ممنوناً لهذا العرض السخى من نزيلهم الجديد:

- «واحد كلب بسبعة أرواح شرّحته بالسكين ولسه عايش.. هو فى المستشفى.. لو مات حالبس قضية قتل بالعمد وفيها تأييدة، ولو عاش بقت خناقة وفيها كام شهر..»
- «ياذن الله جيعيش»

- «حرام عليك.. يموت أحسن.. لو عاش حاقتله تانى»
تأمله بعمق وهو يهمس لنفسه: «هذا هو كيمو.. قاتل بارد الأعصاب.. فإذا عن الآخرين؟»
- «وتهمتك إية يا سنّى؟»

- «أى حاجة تخطر ببالك.. هجّام.. خطّاف.. أكسر شققاً.. افتح عربيات.. أى حاجة.. أى حاجة.. بس عمرى ما اشتغلت مرشداً»

يده سجين يجلس فى مواجهتهم: «فى الموضوع ده أشهد بالله إنك راجل.. ومجدع»
فقال له السنّى: «صاحبك حاول معايا.. أنت فاكره يا سردينه.. الظابط فكرى»
- «طبعاً فاكره كان عاوز يدسك ع العيال بتوع المرحج.. إنت طلعت رجولة»

تأمله هو الآخر بعمق: «وهذا هو السنّى.. مجرم متمسك بالمبادئ، والفضيلة عنده هو ألا يعمل جاسوساً لصالح الشرطة ضد زملائه المجرمين»
- «وأنت يا سردينه.. تهمتك إيه؟»

فقال له سردينة: «أنا المرة دى شاييل تهمة عن واحد عزيز علىّ. وعندى محكمة قريباً.. فيها ستة شهور أو ستة بالكثير..»

لم يسأله عن التهمة التي تصدى لها نيابة عن ذلك العزيز.. ولكن كلمة «المرة دى» تشير إلى أنه محترف تردد على السجون.

لقد استعرضوا في تواضع شديد قدراتهم الإجرامية التي هي جزء من مكوناتهم الخلقية.. ولكن أذهله بعد قليل استعراضهم الجديد المبالغت، فقد ضجت الزنزانة المجاورة بالصياح ووقف «كله» أمام فتحة الشباك ذى القضبان بأعلى الباب الحديدى يستطلع الأمر وأعلن أن العساكر سحبوا زميلهم «خالد بُقْ» من زنزانه المجاورة إلى الطرقة التي تطل عليها كل أبواب الزنازين الأربعة وراحوا يضربونه بكل قسوة..

هب كيمو من مرقده الدافئ واستلم فتحة الشباك.. وراح ينادى على الضباط «ال..» والمأمور «ال..» حتى يوقفوا هؤلاء العساكر «ال..» ووصلت نداءاته البذيئة إلى الضابط أشرف الذى جاء صامتاً.. وفتح زنزانة «كيمو» وهو كظيم.. وأخرجه مع السنى وسردينة وهو ما زال لاثداً بصمته ووجهه المحتقن.. وأشار إلى العساكر الذين يؤدبون «خالد بُقْ» أن يتوقفوا عن مهمتهم إلى حين: «سيبوا الكلب ده دلوقت .. شوفوا ولاد ال.. دول».

ووقف الثلاثة في مواجهة ضعفهم من الجنود يتلقون الضرب بالعصى والأيدى والأرجل في ثبات ودون دفاع أو اتقاء لهذا الهجوم الكاسح.. ولم ينل منهم التعب قدر ما نال الجنود لكثرة ما صرفوه من جهد أصابهم باللهاث، وفي لحظات هدوء كانوا يلتقطون فيها أنفاسهم توجه «كيمو» بوجهه المحتقن غيظاً والطافح احمراراً من أثر الضرب إلى الضابط أشرف بكلام هادئ:

- «لم كلابك يا أشرف، وخلي اليوم ده يعدى»

- «نعم يا روح أمك أشرف كده حاف .. بتهددنى يا»

وجاءه الرد سريعاً من «خالد بُقْ» الذى قام من رقدته ممنوناً لفضل زملائه، وفتح فاهه عن آخره ومد يده إلى سقف حلقه وانتزع شفرة لامعة لموسى حلاقة، وراح يصيح وهو يمزق بها ذراعاه: «أنا حوديكم فى ستين داهية يا ولاد ال» وعندما اقترب بالشفرة من

وجهه لطمه كيمو بشدة وقبض على يده:

- «بلاش اللون ده يا بُقّ.. خسارة.. وشك خسارة.. خلاص يا أشرف بيه.. ادخلوا يا ولاد..»

ادخل يا بقّ.. حاتودى مين فى داهية؟ دول عالم كلهم ظلمة.. ابعت لنا شاي يا بنى..»

وكان النداء الأخير موجّهًا لأحد جنود الضابط أشرف بشأن إرسال الشاي.

- «هات لهم شاي يا بنى.. خشوا يا...»

وكانت الكلمات الأخيرة هي الفاصلة في المعركة عند أشرف، فطلب لهم الشاي،

وودعهم إلى الزنزانة بكلمة نائية..

ودخل معهم إلى زنزانتهم «خالد بُقّ» زميل الزنزانة المجاورة يحمل ذراعًا تسيل منه

الدماء وهو يكرر كلامًا كالذى قاله كيمو، حول ظلم الضباط وعدم رجولتهم فهم

يفرضون سطوتهم على مساجين عزل لا يملكون حق الرد عليهم.

وجاء الجندى حاملًا الشاي لأربعة يستحقون هذا التكريم، فجلس المكرمون

يرتشفونه فى هدوء وهم يحاولون وقف نزف دماء خالد ببعض قطع من ملابس قديمة..

ثم راحوا يتبادلون الضحكات ويتحدثون فى أشياء أخرى لا علاقة لها بالموقعة الصاخبة

التي دارت بينهم وبين الدولة منذ قليل.

عصف الذهول بعقله..

- «ما هذا الذى أراه؟.. هل هؤلاء بشر كالbشر الذين أعرفهم؟ لا والله.. إنهم من طينة

مختلفة وبعروقهم دماء مختلفة، وبعقوهم مفاهيم مختلفة»

وظل يتساءل.. ويتأمل ويحلل.. ويتعجب، وكلما تعمق فى البحث تهاوى فى ظلام الغموض

ولم يتببه أى شعور سوى خجله من نفسه، فقد كان يفهم - حتى دقائق مضت - أنه جسور

شجاع مقدام «لا.. لا والله.. لست كذلك، فأنا تافه وسطحي.. ومجرد بالونة مليئة بالهواء.. أدفع

عمرى وانضم إلى هؤلاء العظماء.. أو أضممهم إلى.. تلك هي الكتيبة التي أستطيع بها أن أغزو

العالم.. إنهم لى.. كلهم لى.. سأجعلهم يحبوننى.. ثم يحترموننى.. فمن العبث أن ينفقوا

بطولاتهم فى معارك هزيلة. فليصرفوها عندى فى مواقع عالية.. يجب ألا يقتربوا بذكائهم من

النار.. أنا سأقربهم به من الجنة.. هل لى أن أشكر فتياتنا الذى أتى بى إلى هذا المكان؟.. أين كنت

سأجد مثل هؤلاء العظماء سوى هنا.. عند هذا الجدار الأخير في نهاية عالم مليء بالجدران.. إنه آخر جدار يستندون إليه ظهورهم المتعبة، ونفوسهم القلقة.. وآمالهم الغائمة.. الجدار الذى يستسلمون عنده لقدرهم وهم يبعثون إلى العالم الخارجى نظرة ازدراء. الجدار الذى يقبلون عنده أى شىء يتعلق بمصيرهم؛ حيث لا يملكون خيارًا آخر سوى هذا المصير..»

كان سارحًا.. شاردًا.. مذهولًا.. لم يعد يقوى على الكلام والتعبير.. وصحا على نداء ناعم من كله: «مالك يا روحى.. سارح فى إيه»

أشاح عنه بوجهه، واتجه إلى كيمو متسائلًا:

- «تعرفوا العساكر اللى هنا كويس؟»

- «طبعًا عاوزهم فى حاجة؟»

- «ممكن أكلف واحد منهم بمشوار للفيلادى يوم السبت الصبح.. الفيلادى بعد الميدان بشوية..»

- «ممكن أختار لك (عسكرى مجدع) يعمل المشوار ده.. لكن ليه؟»

وقال السيد النحال بصوت هادئ:

- «زمان مدير مكتبى قلقان علىّ ومش عارف أنا فىن. وحيدوخ علىّ النهاردة وبكره..»

ويوم السبت مش حيلاقينى فى المكتب بالفيلادى.. حيقلق أكثر.. العسكرى لوراح يسأل

عليه.. اسمه عنتر.. يجيبه معاه.. ومعاهم ألف جنيه.. نسددهم للقضية.. وكان ٢٠٠

جنيه توزعهم بنفسك على الرجالة الحلوين دول عربون صداقة»

فشهق كله فرحًا:

«يا قوة الله، ٢٠٠ جنيه مرة واحدة؟»

وتأمله كيمو برزانة وإعجاب:

«وكل الرجالة دول إخواتك ورجالتك من غير عربون.. اكتب لنا عنوانك

وتليفوناتك وكلنا حنزورك، كل واحد حسب ظرفه..»

فكتب له العنوان.. ولأذ بصمت وقور وهو واثق أنهم سيحسنون تقدير موقفه الناطق

بالإعجاب بهم ومحاولة كسبهم.. ثم وثق أنه سيبنى ثمار ذلك فى الوقت المناسب.